الدلالات الثقافية في تصوير الحرب بالناقة لدى شعراء ما قبل الإسلام •

د . محمد سليمان عبد الحفيظ*

الحرب هي مظهر من مظاهر الثقافة الاجتماعية الشائعة لدى العرب في عصر ما قبل الإسلام ، وهو مظهر لم يكن محبوباً أو مرغوباً فيه ، وإنما شاع نتيجة عوامل بيئية واجتماعية واقتصادية ونفسية وسياسية .

وعلاقة الحرب بالشعر علاقة متينة ، فهي من أقوى دواعي إبداع الشعر ونظمه وإنشاده ، بما تثيره من عواطف ، وتلهبه من مشاعر ، وبما يعقبها من نتائج ، وتخلفه من آثار .

وإذا كان الشاعر كما يقول ابن رشيق: هو الذي « يشعر بما لا يشعر به غيره »(1) فإن حديثه عن الحرب ، وخوضه في دوافعها ومثيراتها ، وفي تفصيلاتها ومجاري أحداثها ، وفي آثارها ونتائجها ، عادة ما يكون أكثر وأبلغ وأقوى تأثيراً من حديث غيره ، وهو حديث لم يكن مرتبطاً بغرض واحد من أغراض الشعر ، وإنما جاء في معظم أغراضه المعروفة ؛ كالحماسة ، والفخر ، والمدح ، والرثاء ، والهجاء ، والوصف ، والحكمة ، وغيرها(2) .

وقد تنبه النقاد القدماء إلى أثر الحرب في دفع الشعراء إلى نظم

• المقصود بشعراء ما قبل الإسلام في هذه الصفحات ، هم الشعراء الذين عاشوا ثقافة ما قبل الإسلام ، سواء الذين أمضوا كامل حياتهم في العصر الجاهلي ، أو الذين أدركوا الإسلام .

* الجامعة الأسمرية ، ليبيا .

(1) ابن رشيق القيرواني ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، حققه وفصله وعلق حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، ط5 ، 1401 هـ ـ 1981 م ، 1 / 116 .

(2) ينظر: علي الجندي ، شعر الحرب في العصر الجاهلي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط3 ، 1966م ، ص73 وما بعدها .

الشعر والإكثار منه ، الأمر الذي دفع بعضهم إلى تبرير كثرة شعر بعض القبائل أو قلته إلى كثرة حروبها وغزواتها أو قتلها . قال ابن سلام الجمحي: « وإنما يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء ، نحو حرب الأوس والخزرج ، أو قوم يغيرون ويغار عليهم ، والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم ثائرة ولم يحاربوا ، وذلك الذي قلل شعر عمان »(1) .

والتصوير هو أبرز خصائص الشعر النوعية ، وهو لا يتأتى ، أو لا يكون له معنى ودلالة ، إلا مع وجود مخزون ثقافي أوجد نوعاً من العلاقة بين المصور والمصور به ، سواء أكانت هذه العلاقة واقعية أم رمزية ، شكلية أم معنوية ، يعيها الشعراء وغيرهم من أبناء الثقافة الواحدة ، أو مضمرة في اللاوعي .

ودرج شعراء ما قبل الإسلام على تصوير الحرب بالعديد من العناصر والمظاهر الثقافية الشائعة في بيئتهم الطبيعية والاجتماعية ، من أهمها: النار ، والرحى ، والحيوان المفترس ، والناقة .

فصورها بالنار ، لكونها تهلك المتحاربين ، وتؤذي كل من يطاله أمرها ، كما تلتهم النار الحطب ، وتؤذي كل من يصل إليه لهيبها ؛ وصورها بالرحى ، لكونها تبيد الناس وتهلكهم ، كما تطحن الرحى الحب وتصيّره دقيقاً ؛ وصورها بالحيوان المفترس المكشر عن أنيابه ، لتأذي الناس منها وكراهيتهم لها ، كتأذيهم من الحيوان المفترس وكرههم له .

وإذا كانت العلاقة بين الحرب والنار ، أو الرحى ، أو الحيوان المفترس ، يمكن تصورها وتبادرها إلى الأذهان دون عناء ومشقة ، فإن العلاقة بين الحرب والناقة ، علاقة بعيدة ليس من السهل إدراكها وتصورها ، وذلك لعدة أسباب من أهمها:

1 ـ ارتباط الحرب في الثقافة العربية بالشر والموت ، وارتباط الناقة في الجانب الأبرز من هذه الثقاة بالخير والحياة ؛ فهي حيوان نافع مبارك يرمز للأمان والنجاة واستمرار الحياة(2) .

---

(1) محمد بن سلاّم الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، قرأه وشرحه أبو فهر محمود محمد شاكر ، دار المدني ، جدة ، د . ت ، 1 / 259 .

(2) ينظر: محمد سليمان عبد الحفيظ ، أثر المكونات الثقافية في بناء الصور البلاغية ، رسالة دكتوراه ،

يقول امرؤ القيس:

فعَزَّيْت نَفسِي حِينَ بَانوا بِجَسْرَةٍ ❖ أَمونٍ كَبَنْيَانِ اليَهودِيِّ خَيْفَقِ(1)

ويقول الأعشى:

فدَعْ ذَا وَلكِنْ ربَّ أَرْضٍ متَيْهَةٍ ❖ قطعْت بِحرْجوجٍ إِذَا الليْل أَظلما
بِنَاجِيَةٍ كالفحْلِ فِيهَا تَجاسرٌ ❖ إِذَا الرَّاكِب النَّاجِي اسْتَقى وتَعَمَّمَا(2)

2 ـ تنوع الصور التي جاءت في تصوير الحرب بالناقة ، الأمر الذي أدى إلى تنوع العلاقة فيها ، وإلى فتح المجال لاستنتاج عدة دلالات عند تحليل الصور ودراستها .

3 ـ أن بناء هذه الصور لم يكن بطريقة مباشرة بالاعتماد على أسلوب التشبيه أو أسلوب الاستعارة التصريحية ، وإنما جاء عن طريق إثبات بعض خواص الناقة ولوازمها للحرب ، وهذا الأسلوب يسمى في اصطلاح البلاغيين استعارة مكنية واستعارة تخييلية(3) .

وقد تعددت خواص الناقة ولوازمها التي أثبتها الشعراء للحرب في صورهم ، فمنها ما كان متعلقاً بسن الناقة ، يقول قبيصة بن جابر:

فلسْنَا مِنْ بَنِي جَدَّاءَ بِكرِ ❖ وَلَكِنَّا بَنو جِدِّ النِّقالِ(4)

ويقول مالك بن عجلان:

أَبنَاء حَرْبٍ الحَرْب ضَرَّسَنَا ❖ أَبْكارهَا وَالعون وَالشرف(5)

معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، 2009م ، ص345 وما بعدها .

(1) امرؤ القيس ، ديوانه ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، 406 هـ ـ 1986 م ، ص134 ، أمون: أمينة ووثيقة الخلق أمنت العثار والإعياء ، الخيفق: السريع .

(2) الأعشى ، ديوانه ، تحقيقه كامل سليمان ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط1 ، د . ت ، ص190 . متيهة: مضلة ، الحرجوج: الناقة الضامرة ، التجاسر: القوة والبأس ، تعمم: لبس العمامة .

(3) ينظر: الخطيب القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، تحقيق ودراسة عبد القادر حسين ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط1 ، 1416هـ ـ 1996م ، ص352 ـ 354 .

(4) المرزوقي ، شرح ديوان الحماسة ، نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، ط1 ، 1411 هـ ـ 1991م ، 2 / 707 . الجداء: الناقة المقطوعة الثدي ، البكر: التي ولدت بطنا واحدة النقال: تكرر الولادة .

(5) أبو زيد القرشي ، جمهرة أشعار العرب ، دار صادر ، بيروت ، ط2 / 1418 هـ ـ 1998م ، ص226 . ضرسنا: حنكنا وجربنا ، الأبكار: جمع بكر ، العون: جمع عوان وهي النصف في سنها لا صغيرة ولا كبير ، الشرف: جمع شارف وهي الكبيرة في السن .

ومنها ما كان متعلقاً بأعضاء جسمها ، يقول خراشة العبسي:

وعذْرَة قدْ حَكتْ بِهَا الحَرْب بَرْكهَا ❖ وَأَلـقَـتْ عَـلى كلبٍ جِـرَاناً وَكَـلـكـلا(1)

ويقول العباس بن مرداس:

فيِ مَأزَقٍ مِن مَجَرِّ الحرْبِ كلكلها ❖ تـكَـاد تَـأفـل مِـنْـه الشَّـمْـس وَالقمر(2)

ومنها ما كان متعلقاً بوضع من أوضاعها المختلفة ، يقول النابغة الذبياني:

فذَاقَ المَوْتَ مَنْ بَرَكتْ عَلَيْهِ ❖ وَبَـالـنَّـاجِـيـنَ أظـفـارٌ دّوَامِ(3)

ويقول معبد بن علقمة العبشمي:

وَلا تَبْعَـثوهَا بَعْدَ شَدِّ عِـقالِهَا ❖ ذَمِيمَة ذِكرِ الغِبِّ لِلمتَغَبِّبِ(4)

ومنها ما كان متعلقاً ببعض أوصافها الشائعة ، يقول بشر بن أبي خازم:

وَأَنْكَاسٌ إِذَا اسْتَعَرَتْ ضَرَوسٌ ❖ تَخَلى مِنْ مَخَافَتِهَا النِّسَاء(5)

ويقول كعب من مالك:

بِنَا كيْفَ نَفعَل إِنْ قلصَتْ ❖ عَوَاناً ضَروساً عَضوضاً حَجونَا(6)

---

(1) المفضل الضبي ، المفضليات ، تحقيق وشرح محمود محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون ، دار المعارف ، القاهرة ، ط8 ، د . ت ، المفضلية رقم(121) ، ص406 . البرك: الصدر ، الجران: باطن العنق ، الكلكل: الصدر .

(2) ابن هشام ، السيرة النبوية ، حققها وشرحها ووضع فهارسها: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، د . ت ، 4 / 109 . المأزق: المكان الضيق في الحرب ، تأفل: تغيب .

(3) النابغة الذبياني ، ديوانه ، شرح وتقديم عباس عبد الستار ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1405 هـ ـ 1984م ، ص67 .

(4) الخالديان ، كتاب الأشباه والنظائر ، حققه وعلق عليه السيد محمد يوسف ، دار الشام للتراث ، بيروت ، د . ت ، 2 / 272 . الغب: العاقبة والغاية .

(5) بشر بن أبي خازم ، ديوانه ، عني بتحقيقه عزة حسن ، دار الشرق العربي ، بيروت — لبنان ، حلب — سورية ، 1416هـ ـ 1995م ، ص56 . أنكاس: جمع نكس بكسر النون وهو الضعيف المقصر عن غاية الجود والكرم من الرجال ، استعرت: اشتعلت ، الضروس من النوق: هي السيئة الخلق الشديدة ، والمراد بها هنا الحرب الشديدة ، تخلى نساء: تلجأ للخلاء ، أي تظهر من الفزع .

(6) كعب بن مالك ، ديوانه: دراسة وتحقيق سامي مكي العاني ، عالم الكتب ، بيروت ، ط2 ، 1417هـ ـ 1997م ، ص213 . قلصت: كناية عن شدة الحرب .

وأول ما يتبادر إلى الذهن في تفسير هذه الصور وبيان دلالتها ، أن المقصود بالجداء البكر ، هو الحرب الأولى الضعيفة اليسيرة الأذى والشر ، وبالنقال ، الحرب المتكررة الصعبة المراس ، وبالناقة البكر ، الحرب الأولى ، والناقة العوان ، الحرب التي قوتل فيها مرة بعد مرة ، والناقة الشارف ، الحرب القديمة التي طال أمدها ، والمقصود من أن للحرب جراناً وكلكلاً ، هو شدة الحرب وقوتها ، ومن إلقائها على قوم ما جرانها وكلكلها ، أو من بروكها عليهم ، هو ثقل وقوع الحرب عليهم ، وانهزامهم فيها ، وقضاؤها المبرم عليهم ، والمقصود من بعثها بعد شد عقالها ، هو إثارتها بعد هدوئها وخمودها ، ومن كونها ضروساً عضوضاً حجوناً ، أنها منكرة شديدة الإيذاء .

وإذا كان لهذه الصور دلالات قريبة يمكن أن تتبادر إلى الذهن ، فإن لها بالأحرى مخزوناً ثقافياً ساهم في بنائها وتشكيلها ، وفي تحديد العلاقة بين عناصرها .

فالحرب هي مظهر من أبرز مظاهر الثقافة الاجتماعية السائدة في المجتمع العربي في عصر ما قبل الإسلام ، تعددت أسبابها وأشكالها ، وتنوعت آثارها ونتائجها ، بل إنها مركب ثقافي اشتمل على العديد من المظاهر والعناصر الثقافية .

والناقة هي عنصر من أبرز عناصر المكون الطبيعي للثقافة العربية في ذلك العصر ، كان له تأثير وتأثر ببقية مكونات الثقافة الأخرى .

وعليه فإن العلاقة بين الحرب والناقة ، هي علاقة بين أبرز مظهر من مظاهر الثقافة الاجتماعية ، وأبز عنصر من عناصر الثقافة الطبيعية ، كانا لهما تأثير وتأثر بمختلف مكونات الثقافة الدينية والأسطورية ، والاقتصادية ، والأدبية ، وغيرها ، ولذلك فإن استحضار أوجه الشبه والاتفاق بينهما ، وتبادرها إلى الأذهان ، لا يختص بجماعة دون أخرى ، أو بطائفة دون غيرها ؛ مبدعين كانوا أو متلقين ، لأن تأثير مكونات الثقافة يعم الجميع ، لكن المثير للانتباه ، ليس مجرد استحضار الصور المتعلقة بالناقة ، وإنما استحضار هذه الصور عند الحديث عن الحرب وتشكيل صورها الشعرية ؛ لأن الحرب مظهر من مظاهر الشؤم والشر ، يرمز للفزع والموت والدمار ، والناقة في الجانب الأبرز من الثقافة العربية عنصر نافع مبارك يرمز للخصب والأمان والنجاة واستمرار الحياة ، وهذا قد يقود إلى

الحكم بوجود تنافر بين عناصر الصور ، منشؤه تعارض بنائها مع ذوق المجتمع وثقافته ، لكن البحث في التراث العربي الثقافي في عصر ما قبل الإسلام ، يزيل ما يمكن حدوثه من لبس ، ويظهر وجود مسوغ لما يمكن أن يقال عنه عند الوهلة الأولى بأنه تنافر أو تعارض .

فالبحث في هذا التراث يظهر أن الناقة في جانب من جوانب الثقافة العربية القديمة ، حيوان ضار مشؤوم يرمز للموت والخراب ، وهذه الثقافة أو هذه الرمزية كانت متغلغلة في أعماق الشعراء وغيرهم من أبناء المجتمع ، فهي التي دفعتهم إلى اعتبارها أشأم من غراب البين ، وهو الذي يضرب به المثل في الشؤم(1) . يقول عوف الراهب:

غَلِط الّذِينَ رَأَيْتهمْ بِجَهَالةٍ ❖ يَلحَوْنَ كلّهم غرَاباً يَنْعِق
مَا الذّنْب إلاّ لِلأَ بَاعِرِ إنّهَا ❖ مِمّا يشِتّ جَمِيعَهمْ وَيفرِّق
إنّ الغرَابَ بِيمْنِهِ تَدْنو النّوَى ❖ وَتَشَتّت الشّمْلَ الجَمِيعَ الأَيْنق(2)

ويقول آخر:

وَمَا الشّؤْم فِي نَعْبِ الغرابِ ونَعْقِهِ ❖ وَمَا الشّؤْم إلا نَاقةٌ وَبعِير(3)

ومن المرجح أن يكون لناقة صالح ، ثم ناقة البسوس ، تأثير في شيوع هذه الرمزية وتغلغلها في أعما ق الشعراء ، أوفي أعماق غيرهم من أبناء المجتمع ، فقد أدى عقر الأولى إلى هلاك ثمود قوم صالح عليه السلام ، وخراب أرضهم وديارهم(4) . وأصبح عاقرها مضرباً للمثل في الشؤم ، وفي ذلك يقال: « أشأُم من أحمر عاد »(5) والمقصود أحمر ثمود . يقول زهير بن أبي سلمى متمثلاً بهذا المثل في وصف الحرب:

---

(1) ينظر: الميداني ، مجمع الأمثال ، دار ومكتبة الحياة ، بيروت ، 1415هـ ـ 1995م ، 1 / 533 ـ 535 .

(2) الحصري القيرواني ، زهر الآداب وثمر الألباب ، عارضه بمخطوطات القاهرة وحققه وضبطه وشرحه ووضع فهارسه علي محمد البجاوي ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، ط2 ، د . ت ، 1 / 480 .

(3) ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، دار الفكر ، بيروت ، د . ت ، 6 / 169 .

(4) ينظر: الثعالبي ، قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس ، المكتبة الثقافية ، بيروت ، د . ت ، ص58 ـ 62 .

(5) أبو هلال العسكري ، كتاب جمهرة الأمثال ، دار الجيل ، بيروت ، ط2 ، 1408 هـ ـ 1988م ، 1 / 558 .

فَتَـنْـتِـجْ لـكـمْ غِـلْـمَـانَ أَشْـأَمَ كلَهِمْ ❖ كأَحْمَرِ عَادٍ ثمَّ ترْضِعْ فتَفطِمِ(1)

أما الثانية وهي ناقة البسوس ، فقد أدى عقرها إلى مقتل عاقرها ، مما تسبب في نشوب حرب بين حيين من أحياء العرب ، استمرت زهاء الأربعين سنة ، وقطع ما بينهما من صلات رحم(2) . وأصبحت هذه الناقة وصاحبتها مضرباً للمثل في الشؤم ، فقيل: » أشأم من البسوس ، وأشأم من سراب «(3) .

وأسهمت بعض المعتقدات الدينية المتمثلة في دفن الناقة مع الميت ، أو ربطها عند قبره إلى أن تموت ، في ترسيخ هذه الرمزية ، فقد كان بعضهم إذا حضره الموت ، يقول لولده: « ادفنوا معي راحلتي حتى أحشر عليها ، فإن لم تفعلوا حشرت على رجلي . . . وكانوا يربطون الناقة معكوسة الرأس إلى مؤخرها مما يلي ظهرها ، أو مما يلي كلكلها وبطنها ، ويأخذون « ولية » فيشدون وسطها ويقلدونها عنق الناقة ويتركونها كذلك حتى تموت عند القبر ، ويسمون الناقة « بلية » والخيط الذي تشد به « ولية »(4) . وفي ذلك يقول عويمر النبهاني:

أَبَنيَّ لا تَنْسَ البَلِيَّةَ إِنَّهَا ❖ لأَبِيـك يَـوْمَ نشـورِهِ مَرْكـوب(5)

كما لا يمكن في هذا السياق ، إغفال تأثير بعض مظاهر الثقافة الاجتماعية التي كانت شائعة إلى وقت ظهور الإسلام ، والمتمثلة في صراع القبائل والعشائر على المراعي وموارد المياه ، وما ينتج عنه من حروب لا تخلف إلا الموت والدمار ، أو المتمثلة في الصعلكة وقطع الطرق والإغارة على الآخرين للاستيلاء على إبلهم ، وما يترتب على ذلك من حروب وغارات وثارات لا تنتج إلا الموت والهلاك ، سواء في جانب المغيرين ، أو في جانب المغار عليهم .

وقد أصبحت هذه الرمزية ، التي تسببت فيها تلك الحوادث

---

(1) زهير بن أبي سلمى ، شعره ، تحقيق فخر الدين قباوة ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط3 ، 1400هـ ـ 1980م ، ص19 .

(2) ينظر: ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، 6 / 59 ـ 67 .

(3) أبو هلال العسكري ، كتاب جمهرة الأمثال ، 1 / 556 . سراب: اسم هذه الناقة .

(4) الشهرستاني ، الملل والنحل ، تقديم وإعداد: عبد اللطيف محمد العبد ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط1 ، 1977م ، ص586 ـ 587 .

(5) الألوسي ، بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب ، عني بشرحه وتصحيحه وضبطه: محمد بهجة الأثري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د . ت ، 2 / 309 .

والمعتقدات ، جزءا من ثقافة العرب في ذلك العصر ، الأمر الذي أدى إلى تأثيرها على الشعراء وبناء صورهم الشعرية .

فالشاعر عندما يصور الحرب بالناقة ، أو يثبت للحرب بعض لوازم الناقة وخواصها ، فإنه يستمد هذه الخواص واللوازم من الواقع الثقافي الذي يعيش فيه والشائع بين أبناء المجتمع ، والذي تعد فيه الناقة وما يتعلق بها ، ركناً من أركانه الأساسية ، كما أنه يستحضر صورة ناقة ثمود ، وناقة البسوس ، والناقة البلية ، وغيرها من النوق التي ارتبطت بالموت والخراب في الثقافة العربية ؛ وقد يكون الشاعر واعياً لهذا الاستحضار عند تصوير الحرب بالناقة ، وقد لا يعي هذا الأمر ، لكن مع ذلك فإن صور هذه النوق وما ارتبطت به من وقائع ومظاهر ، تعيش في أعماقه ، وتمثل جزءاً من مخزونه الثقافي ، ومن ثم فإن استحضارها قد يأتي بوعي أو بدون وعي .

وتصوير الحرب بالناقة لم يكن مقتصراً على مثل نماذج الصور التي تم عرضها ، وإنما كانت هناك صور أخرى أكثر شيوعاً بين الشعراء من الصور السابقة ، هذه الصور هي التي جاءت في تصوير الحرب بالناقة اللاقح ، والناقة اللاقح هي التي حملت من الفحل بعد أن ضربها وقبلت ماءه(1) . وقد تنوعت أساليب الشعراء في بنائهم لهذه الصور بحسب ما يضفى على هذه الناقة من أوصاف وأحوال ، أو عدمه .

فأحياناً يكون التصوير بالناقة اللاقح مجرداً من ذكر أوصاف وأحوال أخرى . يقول جساس بن مرة:

فاصْبِرْ لِبكرٍ فإِنَّ الحَرْبَ قَدْ لقِحَتْ ❖ وَعَزِّ نّفسَك عَمَّنْ لا يوَالِيهَا(2)

ويقول سلامة بن جندل:

وَتَغْلِب إِذْ حَرْبها لاقِحٌ ❖ تشَبَّ وَتسْعَر نِيرَانها(3)

وأحياناً يضيفون بعض الأوصاف والأحوال المتعلقة بعملية الإلقاح ، منها:

---

(1) ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، ط3 ، 1414هـ ـ 1994م ، مادة لقح .
(2) الأبِ لويس شيخو ، شعراء النصرانية في الجاهلية ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، د . ت ، 3 / 250 .
(3) سلاّمة بن جندل ، ديوانه ، صنعة محمد بن الحسن الأحول ، تحقيق: فخر الدين قباوة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط2 ، 1407 هـ ـ 1987م ، ص255 .

1 ـ كون الإلقاح جاء بعد فترة حيال . يقول الحارث بن عباد:

قرِّبَا مَرْبَطَ النَّعَامَةِ مِنِّي ❖ لَقِحتْ حَرْبُ وَائلٍ عَنْ حِيَالِ(1)

ويقول عبيد بن الأبرص:

قوْمِي بَنو دودَانَ أهْلُ النَّهَى ❖ يَوْماً إذَا ألقِحَتِ الحَائِلُ(2)

2 ـ تأكيد إتمام عملية الإلقاح بإحدى علاماته البارزة وهي الشولان بالذنب . يقول عمرو بن كلثوم:

وَمَا انْفك مِنَّا منْذ كنَّا عِمَارَةً ❖ إذَا الحَرْبُ شَالتْ لاقِحاً مَنْ يَقودهَا(3)

ويقول تميم بن مقبل:

حَتَّى تَشول لقاحاً بَعْدَ قارِحِهَا ❖ تَحَرَّبُوهَا كحَرْبِ الذِئْبِ لِلغَنَمَ(4)

3 ـ ذكر الحال التي تمت بها عملية الإلقاح ، أو حال الناقة عند إتمام هذه العملية ، يقول زهير بن أبي سلمى:

فتَعْرككمْ عَرْكَ الرَّحىَ بِثفَالِهَا ❖ وَتلقحْ كِشَافاً ثمَّ تحْمِلْ فتتْئِمِ(5)

ويقول قيس بن الخطيم:

وَنلقِحهَا مَبْسورَةً ضَرْزَنِيَّةً ❖ بِأسْيَافِنا حَتَّى نذِلَّ إبَاءَهَا(6)

4 ـ بيان أهلية الناقة لإتمام عملية التلقيح ، بأنها عوان في سنها ؛ لاصغيرة ولا كبيرة ، يقول مالك بن عجلان:

أبْلِغْ بَنِي جحْجبَى فقدْ لقِحَتْ ❖ حَرْبٌ عَوَانٌ فهَلْ لكمْ سَدَفُ(1)

---

(1) الأب لويس شيخو ، شعراء النصرانية في الجاهلية ، 3 / 272 .

(2) عبيد بن الأبرص ديوانه ، تقديم وشرح وتعليق: محمد حمود ، دار الفكر اللبناني ، ط1 ، 2000م ، ص87 .

(3) عمرو بن كلثوم ، ديوانه ، ضمن دواوين الموسوعة الشعرية المسجلة على قرصين CD ، المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، الإصدار الثالث ، 2003م . شالت الناقة: رفعت ذنبها للفحل علامة على لقاحها .

(4) ابن قتيبة ، كتاب المعاني الكبير في أبيات المعاني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 405 هـ ـ 1984م ، 2 / 995 . القارح: الناقة أول ما تحمل ، وقيل: هي أيام يقرعها الفحل .

(5) زهير بن أبي سلمى ، ديوانه ، ص19 . تعرككم: تطحنكم وتهلككم ، الثفال: جلد يكون تحت الرحى يقع عليه الدقيق .

(6) قيس بن الخطيم ، ديوانه ، تحقيق: ناصر الدين الأسد ، دار صادر ، بيروت ، د . ت ، ص51 . بسر الفحل الناقة إذا ضربها على غير ضيعة .

ويقول المزرد بن ضرار:

وَعِنْدِي إذَا الْحَرْبُ العَوانُ تَلَقَّحَتْ ❖ وَأَبْدَتْ هَوَادِيهَا الخطوب الزَلازِل(2)

وقد يضيفون إلى وصفها بالعوان وصفها بأوصاف أخرى ، مثل: الضرّ ، وسوء الخلق والكراهية ، وعصل الأنياب . يقول زهير بن أبي سلمى:

إِذَا لَقِحَتْ حَرْبٌ عَوَانٌ مضِرَّةٌ ❖ ضَروسٌ تهِرُّ النَّاسَ أنْيَابهَا عصْلُ(3)

فهذه الصورة تشتمل على ثلاث دلالات: دلالة صريحة ، ودلالة ضمنية ، ودلالة مضمرة .

فالدلالة الصريحة هي المبالغة في وصف الحرب بالقوة والشدة والفضاعة ، والتهويل مما تحمله من أخطار ، وينتج عنها من ويلات ، وهذه الدلالة يعيها الشعراء عند بنائهم لهذه الصور ، كما أنها أولى الدلالات التي تتبادر إلى أذهان المتلقين ، وهي الدلالة التي قال بها معظم شراح الدواوين والمجموعات الشعرية ، وهذه الدلالة جاءت نتيجة تأثير الثقافة الواقعية المستمدة من الواقع ، وبخاصة المتعلقة بالحرب .

والدلالة الضمنية في هذه الصور ، هي أن الناقة اللاقح التي صورت بها الحرب ليست ذلك الحيوان النافع المبارك الذي يرمز للأمان والنجاة واستمرار الحياة ، وإنما هي حيوان ضار مشؤوم يرمز للموت والخراب ، وهذه الدلالة يعيها بعض الشعراء ولا يعيها البعض الآخر ، لكنها بالتأكيد كانت حاضرة في وعي أوائل الشعراء الذين أبدعوا مثل هذه الصور ، وهذه الدلالة جاءت نتيجة تراكمات ثقافية ؛ بعضها قديم ، وبعضها جديد ، بعضها طبيعي ، وبعضها اجتماعي ، والبعض الآخر أدبي ، أو ديني وأسطوري .

أما الدلالة المضمرة ، فالمقصود بها الدلالة النسقية ، وهي دلالة لا يعيها الشعراء عند نظمهم للأبيات وبنائهم للصور ، وتتسرب غير ملحوظة من باطن النص ، ناقضة منطق الصورة ذاتها ودلالاتها الصريحة

---

(1) أبو زيد القرشي ، جمهرة أشعار العرب ، ص226 . سدف: سترة .

(2) المفضل الضبي ، المفضليات ، المفضلية رقم(7) ص95 . هواديها: أوائلها ، الزلازل: الأمور التي يصيب الناس منها كالزلزلة لشدتها .

(3) زهير بن أبي سلمى ، ديوانه ، ص36 . تهرّ الناس: أي تصيّرهم يهرونها أي يكرهونها .

والضمنية(1) .

والدلالة النسقية في هذه الصور ، هي دلالة الخصوبة ، وهي دلالة عبر عنها الشعراء دون وعي منهم ، من خلال استحضار صورة الناقة اللاقح وتوابعها عند تصوير الحرب وملحقاتها ، فالناقة اللاقح هي رمز للخصوبة ؛ لأن التلقيح هو الركن الأول والركيزة الأساسية ليس في خصوبة الناقة فحسب ، وإنما في خصوبة الإنسان والحيوان والشجر وغيرها ، فهو الممارسة الفعلية لعملية الإخصاب وبدونه لا وجود لحمل ونتاج .

وهذه الدلالة النسقية ، أي دلالة الخصوبة ، تعني الخير والحياة ، وهي تختلف وتتعارض مع الدلالة الصريحة المتمثلة في الحرب الشديدة الفضيعة ، والتي تعني الشر والموت ، كما تتعارض مع الدلالة الضمنية التي تشير إلى الناقة الضارة المشؤومة ، المرتبطة في الأذهان بالشر والموت .

فالشعراء في هذه الأبيات يعبرون عن مظهر من مظاهر الشر والموت هو الحرب ، من خلال تصويره برمز من رموزها وهو الناقة الضارة المشؤومة ، لكن أعماقهم تنشد الخصب وتتوق إليه ؛ ولهذا تسربت أبرز أركانه ودلائله إلى بنية الصور دون قصد منهم إلى ذلك .

واستحضار الشعراء لصور الخصب ومظاهره ، يمثل شكلاً من أشكال الهروب اللاشعوري من واقع مكروه فرضته ظروف بيئية واجتماعية واقتصادية ، إلى حياة ينشدونها ، وصور ومظاهر لها في نفوسهم مكانة خاصة « ولعل الحرمان وندرة المياه ، وجدب الأرض ، هو الذي جعلهم يبالغون في تقدير الخصب ، ويرون له رونقاً خاصاً في هذه البيئة الجرداء »(2) ، ودفعهم إلى استحضار صوره حتى عند حديثهم من مظاهر الشؤم والموت الخراب .

يتضح مما سبق أن بناء هذه الصور أو التعبير بها ، قد تقاطع فيه الوعي مع اللاوعي ، والصريح مع الضمني ، والاجتماعي مع البيئي ، والوقائع مع الرموز ، والواقع المعاش مع المأمل المنشود .

---

(1) ينظر عبد الله الغذامي ، النقد الثقافي ، رؤية جديدة ، مجلة فصول ، القاهرة ، العدد 59 ، ربيع 2002م ، ص45 ـ 53 .

(2)نوري حمودي القيسي ، الطبيعة ي الشعر الجاهلي ، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط1 ، 1390 هـ ـ 1970م ، ص45 .

وهذا التقاطع في بناء الصور أو التعبير بها ، والتأثير العميق لفكرة الخصوبة ، أوتسرب النسق الخصوبي لصور الشعراء ، لم يقف عند الصور التي جاءت في تصوير الحرب بالناقة اللاقح ، وإنما تعداه لصور أخرى للحرب ، وهي الصور التي جاءت في تصويرها بالناقة الحلوب ومتعلقاتها ، يقول قيس بن الخطيم:

وَإِنَّا إِذَا مَا ممْتَرالحَرْبِ بَلحوا ❖ نَقِيم بِأَسْبَادِ العَرِينِ لِوَاءَهَا(1)

ويقول عامر بن الطفيل:

نَشدَّ عِصَابَ الحَرْبِ حَتَّى ندِرَّهَا ❖ إِذَا مَا نفوس القَوْمِ طالعَةِ الثَّغَر(2)

ويقول الأعشى:

بِهِمْ تمْتَرَ الحَرْب العَوَان وَمِنْهم ❖ تؤَدَّى الفروض حلوهَا وَمَرِيرهَا(3)

ويقول كعب بن مالك:

أَلسْنَا نَشدَّ عَليْهَا العِصَا ❖ بَ حَتَّى تَدرَّ وَحَتَّى تَلِينَا(4)

فاستدرار اللبن من الناقة ، يعني أنها ناقة خصبة وافرة اللبن في ضرعها ، هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية ، فإن وجود الحليب في ضرع الناقة ، يكون بعد حملها وولادتها ، والحمل والولادة هما المظهر الأبرز لخصوبة الكائن الحي ، ولولاهما لما كان هناك لبن ، يضاف إلى ذلك أن وجود اللبن في ضرع الناقة ، دليل على خصوبة الأرض ووفرة الكلأ ، ولو كان الأمر غير ذلك ، لكانت النوق عجاف واللبن منعدم في ضروعها .

وهذه الدلالة النسقية المضمرة التي تسربت إلى الصور ، تخالف وتعارض الدلالة الصريحة المتمثلة في تصوير استثارة الحرب والإكثار من القتل والتخريب ، باستدرار اللبن من الناقة ، كما تخالف الدلالة الضمنية التي توحي بأن الناقة في هذه الصور هي ناقة ضارة مشؤومة ترمز للموت

---

(1) قيس بن الخطيم ، ديوانه ، ص50 . ممتدو الحرب: الذين يستدرونها ، وهذا مثل ، يقال: مريت الناقة إذا مسحت ضرعها لتدرّ ، بلّحوا: أعيوْا ، الأسباد جمع سبد ، والسبد الذئب والداهية ، وهو سبد أسباد وداهية في اللصوصية ، وعنى بأسباد العرين: الأسود

(2) عامر بن الطفيل ، ديوانه ، لايل ، لندن ، ط1 ، 1913م ، ص139 . العصاب: ما يشد به فخذي الناقة أو أدنى منخريها لتدرّ ، ودرت الناقة: إذا حلبت فأقبل على الحالب منها شيء كثير .

(3) الأعشى ، ديوانه ، ص69 .

(4) كعب بن مالك ، ديوانه ، ص213 .

والهلاك .

بقت الإشارة إلى أن هذه الصور التي جاءت في تصوير الحرب بالناقة ، أو وصف الحرب بأوصاف الناقة ، سواء أكانت هذه الناقة لاقحاً أم كانت حلوباً ، لم تكن من قبل الصور القليلة النادرة ، وإنما هي من الصور الشائعة بين الشعراء ، مما يعني أن التعبير بها لا يمثل شعوراً فردياً لقلة من الشعراء ، جمعتهم فترة زمنية معينة ، أو محيط اجتماعي أو جغرافي محدد ، وإنما يمثل شعوراً أو إرثاً جماعياً لعرب ما قبل الإسلام ، يعبر عن ماض متجذر في الأعماق ، وواقع معاش ، وأمل منشود ، أي أنه يعبر عن ثقافتهم ، وما تمثله أفكار الحرب والناقة والخصوبة في هذه الثقافة .

مراجع البحث :

1ـ الأب لويس شيخو ، شعراء النصرانية في الجاهلية ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، د . ت .
2ـ ابن رشيق القيرواني ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، حققه وفصله وعلق حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، ط5 ، 1401 هـ ـ 1981 م .
3ـ ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، دار الفكر ، بيروت ، د . ت .
4ـ ابن قتيبة ، كتاب المعاني الكبير في أبيات المعاني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 405 هـ ـ 1984م .
5ـ ابن منظور ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، ط3 ، 1414هـ ـ 1994م .
6ـ ابن هشام ، السيرة النبوية ، حققها وشرحها ووضع فهارسها: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، د . ت .
7ـ أبو زيد القرشي ، جمهرة أشعار العرب ، دار صادر ، بيروت ، ط2 / 1418 هـ ـ 1998م .
8ـ أبو هلال العسكري ، كتاب جمهرة الأمثال ، دار الجيل ، بيروت ، ط2 ، 1408 هـ ـ 1988م .
9ـ الأعشى ، ديوانه ، تحقيقه كامل سليمان ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط1 ، د . ت .
10ـ الألوسي ، بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب ، عني بشرحه وتصحيحه وضبطه: محمد بهجة الأثري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د . ت .
11ـ امرؤ القيس ، ديوانه ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، 406 هـ ـ 1986 م .
12ـ بشر بن أبي خازم ، ديوانه ، عني بتحقيقه عزة حسن ، دار الشرق العربي ، بيروت – لبنان ، حلب – سورية ، 1416هـ ـ 1995م .
13ـ الثعالبي ، قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس ، المكتبة الثقافية ، بيروت ، د . ت .
14ـ الحصري القيرواني ، زهر الآداب وثمر الألباب ، عارضه بمخطوطات القاهرة وحققه وضبطه وشرحه ووضع فهارسه علي محمد البجاوي ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، ط2 ، د . ت .
15ـ الخالديان ، كتاب الأشباه والنظائر ، حققه وعلق عليه السيد محمد يوسف ، دار الشام للتراث ، بيروت ، د . ت .
16ـ لخطيب القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، تحقيق ودراسة عبد القادر حسين ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط1 ، 1416هـ ـ 1996م .
17ـ زهير بن أبي سلمى ، شعره ، تحقيق فخر الدين قباوة ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ،

ط3 ، 1400هـ ـ 1980م .

18ـ سلاّمة بن جندل ، ديوانه ، صنعة محمد بن الحسن الأحول ، تحقيق: فخر الدين قباوة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط2 ، 1407 هـ ـ 1987م .

19ـ الشهرستاني ، الملل والنحل ، تقديم وإعداد: عبد اللطيف محمد العبد ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط1 ، 1977م .

20ـ عامر بن الطفيل ، ديوانه ، لايل ، لندن ، ط1 ، 1913م ، ص139 . العصاب: ما يشد به فخذي الناقة أو أدنى منخريها لتدرّ ، ودرت الناقة: إذا حلبت فأقبل على الحالب منها شيء كثير .

21ـ عبد الله الغذامي ، النقد الثقافي ، رؤية جديدة ، مجلة فصول ، القاهرة ، العدد 59 ، ربيع 2002م .

22ـ عبيد بن الأبرص ديوانه ، تقديم وشرح وتعليق: محمد حمود ، دار الفكر اللبناني ، ط1 ، 2000م .

23ـ علي الجندي ، شعر الحرب في العصر الجاهلي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط3 ، 1966م .

24ـ عمرو بن كلثوم ، ديوانه ، ضمن دواوين الموسوعة الشعرية المسجلة على قرصين CD ، المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، الإصدار الثالث ، 2003م .

25ـ قيس بن الخطيم ، ديوانه ، تحقيق: ناصر الدين الأسد ، دار صادر ، بيروت ، د . ت .

26ـ كعب بن مالك ، ديوانه: دراسة وتحقيق سامي مكي العاني ، عالم الكتب ، بيروت ، ط2 ، 1417هـ ـ 1997م .

27ـ محمد بن سلاّم الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، قرأه وشرحه أبو فهر محمود محمد شاكر ، دار المدني ، جدة ، د . ت .

28ـ محمد سليمان عبد الحفيظ ، أثر المكونات الثقافية في بناء الصور البلاغية ، رسالة دكتوراه ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، 2009م .

29ـ المرزوقي ، شرح ديوان الحماسة ، نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، ط1 ، 1411 هـ ـ 1991م .

30ـ المفضل الضبي ، المفضليات ، تحقيق وشرح محمود محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون ، دار المعارف ، القاهرة ، ط8 ، د . ت ، المفضلية رقم(121) .

31ـ الميداني ، مجمع الأمثال ، دار ومكتبة الحياة ، بيروت ، 1415هـ ـ 1995م .

32ـ النابغة الذبياني ، ديوانه ، شرح وتقديم عباس عبد الستار ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1405 هـ ـ 1984م .

33ـ نوري حمودي القيسي ، الطبيعة ي الشعر الجاهلي ، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط1 ، 1390 هـ ـ 1970م .